# مشاهد اوربا

## ٧

### مدينة جنيفا

لم اطل الاقامة في سان مرك فودّعتها على عجل ونزلت الى جنيفا اكبر مدائن سويسرا واجملها واغناها. وهي مبنيّة على طرف بحيرة جنيفا المشهورة بصفاء مائها وزرقته عند صدور نهر الرون منها فيشطرها شطرين. وقد ذُكِرَت هذه المدينة قبل التاريخ المسيحي وصارت قصبة مملكة برغنديا سنة ٤٣٣ للمسيح وانتقلت عليها الشؤون بعد ذلك الى ان انضمت الى جمهوريّة سويسرا. ومشاهدها كثيرة وساوجز في وصف ما شاهدته منها ولو كانت حريّة بكل تطويل

من اشهر هذه المشاهد دار التاريخ الطبيعي في المدرسة الجامعة وهي بناء فسيح في حديقة غناء في قلب المدينة حتى يسهل على الاهلين مشاهدة ما فيها وهم يتقاطرون اليها رجالاً ونساء واولادًا من كل الطبقات فيرون فيها وحوش الارض ودوابها وزحافاتها وحشراتها واسماكها وطيورها على اختلاف اجناسها وانواعها وتباياتها معبرةً واقفةً كما تقف وهي حيّة. ويرون عظامها مركبة بعضها مع بعض في هياكلها. ويرون متحجراتها الجيولوجيّة ومتحجرات غيرها من الحيوانات المنقرضة وبالاختصار يرون جميع طوائف الحيوان من اقدم عهدها الى الآن ويرون ايضاً عجائب المسوخ الحيوانيّة التي شذّت عن الشكل العام بزيادة او بنقصان

وهذه الدار مدرسة للتاريخ الطبيعي يتعلم منها الانسان في ساعة ما لا يتعلمهُ من الكتاب في سنة ويرى فيها عيانًا ما لا يراهُ لو ساح الارض كلها وخاض بحارها واوغل في قفارها ورقي اعلى جبالها فيرى الغورلاّ والاورانغ اوتان والشمبنزي والجبون والزرافة والاسد والببر والنمر والتمساح والبواء وثور المسك والرنة والوعل القديم والفظ وما لا يحصى عددهُ من انواع الاسماك والطيور والزحافات والحشرات واكثرها مما يندر وجودهُ او تعزّ رؤيتهُ. ويرى ايضاً كثيرًا من نوادر المتحجرات وعظام كثير من الحيوانات الكبيرة المنقرضة وانواع المعادن والحجارة الكريمة. وقد تمنيت لو انشئت دار مثل هذه الدار في القاهرة والاسكندرية فان كلاً منهما اكبر كثيرًا من جنيفا التي لا يزيد عدد سكانها على ٧٣ الف نفس. لكن اين العلماء الطبيعيون الذين يجمعون

هذه المجاميع ويرتبونها ويهبونها لوطنهم خدمةً لبنيهِ وامن الاغنياء الذين يبنون هذه الدور تخليدًا لذكرهم وتعزيزًا لشأن وطنهم

وامام هذه الدار دار أُخرى مثلها للمكتبة العموميَّة فيها مئة مجلد من الكتب المختلفة وامامها بستان للنبات وهو كدار التاريخ الطبيعي جامع لاجناس النبات وانواعهِ وتبايناتهِ مرتبةً ومعتنيٌ بها حتى تنمو وتينع ولا تذوي نضارتها ولو كانت ممَّا لا يعيش الَّا في الاقاليم الاستوائية الحارَّة كالنخل والموز . ومايحتاج الى الحرارة منها مزروع في بيوت تحمى بالبخار. وفي صدر هذا البستان تمثال ده كندول العالم النباتي الشهير الذي انشأهُ سنة ١٨١٦ والى يمينهِ تمثال بوسيه العالم النباتي ايضًا وفي واجهة البيت الحار تماثيل ستة من مشاهير جنيفا. وهذا شأن الاوربيين فانهم يحيون ذكر علمائهم وعظمائهم ويرفعون انصابهم في مجتمعاتهم ومحافلهم

وعلى مقربة من هذه الحديقة دار الصور والتماثيل المسماة متحف رات نسبة الى الجنرال رات الروسي وهو اصلاً من سكان جنيفا فانهُ خدم بلاد الروس بسيفهِ وبقي قلبهُ في وطنهِ ولذلك وهبت اخناهُ هذه الدار لمدينة جنيفا عملاً بوصيتهِ. وفيها الآن ٣٢٦ صورة كبيرة واثنتان وتسعون صورة صغيرة واربعة وثمانون تمثالاً منحوتًا وكلها من عمل المصورين والنحاتين المشهورين. فان اهالي اوربا يتنافسون بما رسمتهُ انامل مشاهير المصورين ونحتتهُ ازاميل النابغين من النقاشين كما كان عرب الجاهلية يتنافسون بالمعلقات السبع ولقد اجاد الفريقان لان الشعر والنحت والتصوير من ابدع ما اخترعهُ ذوو القرائح الوقَّادة

ومن الصور الجميلة في هذه الدار صورة تعليم باخس فن الغناء وصورة جبال الالب ومن التماثيل تمثال قديم للزهرة وجد وبعض اعضائهِ مكسر فصنع لهُ غيرها النحات فيلبو فراري وتمثال آخر للزهرة منقول عن التمثال المعروف بتمثال فينس ده مديسي وقد بلغ فيهِ جمال الجسم الانساني الغاية القصوى . وكأن النحَّات الذي نحت التمثال الاصلي لم يكتفِ بتمثيل ما وصل اليهِ الانسان في عصرهِ من الارتقاء بل اراد ان يمثل ما سيصل اليهِ في العصور التالية فزاد في غزارة الشعر وصغَّر خنصري الرجلين حتى كاد يلاشيها. ومعلوم ان شعر المرأة سيزيد غزارة بالانتخاب الجنسي حسب مذهب النشوء وخناصر الارجل ستصغر الى ان تزول بقلة الاستعمال

وفي المدينة دار أُخرى للتحف والآثار القديمة من صور وتماثيل واسلحة وآنية مختلفة

وتسمى متحف فول نسبة الى منشئها وفيها تحف كثيرة نادرة المثال . وخارج المدينة دار ثالثة للمصنوعات القديمة والحديثة من كل ما ابدع الصناع عملهُ في الحجر والخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب والحرير والحجارة الكريمة والصور والكتب وهو المعروف بمتحف اريانا . وقد أنشأهُ الموسيو رفيليو الغني الذي مات في مصر القاهرة سنة ١٨٩٠ وسماهُ باسم امهِ والدار نفسها بديعة البناء فيها قبة قائمة على عمُد من المرمر المجزع مختلفة الاشكال لم ارَ اجمل منها في كل ما رأيتهُ حتى الآن حتى كأنها دمية محراب لا بناء للتحف

وفي وسط المدينة مشهد جميل ( تياترو ) بني بين سنة ١٨٧٢ و١٨٧٩ وهو صغير ولكنهُ بديع النقش والصور والتماثيل يشهد لاهل هذه المدينة بسلامة الذوق واتقان الفنون. وقد بنى قنصل انكلترا الآن دارًا فسيحة للموسيقى على مقربة من المشهد طولها نحو سبعين مترًا

قلتُ ان نهر الرون يمر في المدينة . ومعلوم ان الاوربيين لا يدعون الماء يجري على مقربة منهم ما لم يمتنعوا بقوة جريانهِ وعلى ذلك ترى جانبًا كبيرًا من ماء هذا النهر قد حُجز ببناء كبير قبل ان يتجاوز المدينة ووضعت في هذا البناء دواليب كبيرة من نوع التربين فيديرها بقوة ثلاثة آلاف حصان مع ان انحدار الماء هناك لا يزيد الآن على متر و٦٥ سنتيمترًا وهذه القوة العظيمة يستعمل بعضها في رفع الماء الصافي ودفعهِ الى منازل السكان ليشربوهُ وبعضها في رفع الماء غير الصافي ودفعهِ الى المعامل ليستعمل فيها لادارة آلاتها بقوة انحدارهِ وهي تدفع ٥٨٣٥ لترًا من الماء كل دقيقة من الزمان ويراد ان يستخدم جانب من هذه القوة لتوليد الكهربائية وانارة المدينة متى انتهى امتياز شركة الغاز التي تنيرها الآن

وفي المدينة كنائس كثيرة اشهرها الكاتيدرال والكنيسة الروسية والأولى قديمة بنيت سنة ١٠٢٤ ولكنها لا تذكر في جنب كنيسة ميلان والثانية صغيرة جدًا وعليها خمس قباب صغيرة مذهبة وحولها بيوت كبيرة تطل على المدينة

وفيها منتزهات كثيرة منها الحديقة التي فيها المدرسة الجامعة وبستان النبات والحديقة الانكليزية على شاطىء البحيرة وامامها التمثال الوطني اي تمثال اتحاد جنيفا بسويسرا . وفي هذه الحديقة مشهد فيهِ قطعة كبيرة من الخشب طولها ٢٦ مترًا تمثل جبال سويسرا والثلج عليها وانهر الجليد تجري منها والبحيرات متوسدة هضابها . وعلى

مقربة من المدرسة الجامعة ميدان فسيح ارضهُ كبساط من السندس محاط بالاشجار من جوانبهِ الاربعة يتنزَّهُ فيهِ الكبار ويلعب الصغار فيتخلصون من السآمة التي يجدونها في المدن الكبيرة حيث تقل ساحات اللعب . وفيها متنزهات كثيرة غير هذه . اما عن فخامة المنازل واتساع الشوارع ونفاسة المصنوعات من الذهب والزجاج والخزف فحدث ولا حرج . وصنَّاع جنيفا يتباهون باتقان مصنوعاتهم وقد ارافي واحد منهم وهو المسيو غولي لرشي ساعةً صغيرة لا يزيد قطر ميناها على العدسة الكبيرة والساعة كلها لا يزيد حجمها على حجم البندقة الصغيرة وهي مرصعة بالحجارة الكريمة وقال هذا ما لا يقدر عليهِ غيرنا

وقد اعجبني اكرامهم لكل رجل نبغ من مدينتهم فترى تماثيل جان جاك روسو منتشرة في اماكن كثيرة لانهُ ولد في جنيفا ولهُ تمثال على جزيرة صغيرة في البحيرة وهو جالس على كرسي تحتهُ كثير من الكتب الضخمة وبيدهِ الواحدة كتاب فتحهُ ثم القاهُ على ركبتهِ وبالاخرى قلم كأنهُ كان يعلق حاشية على الكتاب ثم أُغلق عليهِ فجلس حيران لا يدري ماذا يكتب . وابلغ من ذلك اكرامهم لدوق برونسويك الذي وهب لمدينتهم عشرين مليونًا من الفرنكات فانهم اقاموا لهُ نصبًا بديعًا من الرخام الابيض والاصهب ارتفاعهُ ٦٦ قدمًا وهو مثمن الشكل فيهِ تماثيل كثيرة واقفة تحت قباب قوطية وكان تمثال الدوق فوقهُ راكبًا على حصانهِ ولكنهُ أُنزل عنهُ حديثًا لخلل اصابهُ

ومن المباني الحديثة دار للبريد وهي من اجمل المباني وابدعها وعلى واجهتها تماثيل الممالك القديمة وفي وسطها تمثال مصر اقدم الممالك واشهرها . ومكان البريد القديم في غاية من الفخامة لكن يظهر ان اهالي جنيفا من الشعوب التي تعدُّ الوقوف تأخرًا فتطلب التقدُّم دواماً والارتقاء من الحسن الى الاحسن وهذه علامة الحياة في الامة

## ظاهر باريس

لا بد لكل من يسيح في اوربَّا من زيارة باريس عاصمة فرنسا بل عاصمة المدنيَّة الحديثة وقد اقتفيت خطوات من تقدمني وقصدتها من جنيفا سحر يوم سحابهُ مكفهر ووابلهُ منهمر . فسار بنا القطار على ضفة نهر الرون وهو على صفاء مائهِ كأن ما ينصب فيهِ من معامل جنيفا ومنازلها لا يقوى على تكديرهِ لسرعة جريانهِ . والارض حولهُ خمائل كستها يد الطبيعة ابهى الحلى والحلل وتفننت الورق في ادواحها ولم تخشَ البلل فتذكرت قول ابن سهل حيث قال

الارض قد لبست ردآء اخضرا والطلُّ ينثر في رباها جوهرا
هاجت نخلتُ الزهر كافورًا بها وحسبت فيها الترب مسكًا اذفرا
والنهر ما بين الرياض تخالهُ سيفًا تعلق في نجادٍ اخضرا
والطير قد قامت بهِ خطباؤهُ لم تتخذ الاَّ الاراكة منبرا

ولما ابعدنا عن جبال الالب واوغلنا في سهول فرنسا تقشعت السحب كغمامة الصيف وانجلى وجه السماء وبسطت الغزالة اشعتها على مروج نضرة وآكام تحفُّ بها الكروم وحقول حصدت حنطتها وصبرت فيها اكداسًا . ومررنا بمدن وقرى اكثر لم أعرِ اسماءها لكثرتها

ولما دخلت محطة سكة الحديد في جنيفا استلم خدامها صندوقين كانا معي واخذا مني عشرة سنتيمات لا غير ولم ارهما بعد ذلك الاَّ حينما دخلنا بلاد فرنسا فانني رأيتهما على مائدة كبيرة مع غيرهما من صناديق المسافرين ونظر اليهما احد رجال الجمرك وسألني عما اذا كان فيهما شيءٌ يدفع عليهِ رسم فأجبت بالنفي فرقم عليهما رقمًا بالطباشير ولم أرَهما بعد ذلك حتى دخلنا محطة باريس وجرى لهما هناك مع احد رجال الجمرك ما جرى في المحطة الاولى . وكنت اذا انتقلنا من قطار الى آخر ارى كلاًّ من الركاب وبيدهِ صندوق صغير او كبير يمشي بهِ متعثرًا حتى النساء العجائز فعجبتُ من حرصهم على متاع الدنيا وهم لو سلموا امتعتهم الى رجال السكة الحديدية لما دفعوا عليها الاَّ اجرة بخسة جدًّا . والانتقال من قطار الى قطار غير متعب لان المهلة كبيرة بينهما وقد يسير القطار توًّا ولكن ذلك ليلاً ولم اشأ ان اسافر فيهِ وأحرَم من مشاهدة البلاد

ويظهر لي ان اهالي شرقي فرنسا لا يعتنون بالزراعة وغرس الحراج اعتناء اهالي اواسطها لان جانبًا كبيرًا من جبالهم وآكامهم لم يزل وعورًا جرداء وقراهم صغيرة لا تقاس بيوتها ببيوت القرى التي في وسط البلاد وعلى مقربة من باريس ومواشيهم غير كثيرة كما يظهر من عدد السائم منها في الحقول . ويكثر في بقرهم اللون الابيض او الاشهب وهي كبيرة سمينة في الغالب . ومحطات سكة الحديد كبيرة رحبة فلا يزدحم الركاب فيها وبها كل ما يحتاج اليهِ المسافر من مأكل ومشرب حتى بيوت الخلاء يعتنى بها كما لو كانت في افخر القصور . اما مركبات القطار نفسهِ فلا تفضل مركبات سكة الحديد المصرية ولا مركبات سويسرا وقد كنت اشعر احيانًا كانني في سفينة تتقاذفها الامواج لكثرة اضطرابها

ولما قربنا من باريس كثرت القرى والدساكر والقصور والمعامل وزادت الحراج كثافة واتساعاً . وكنا نجاري نهر السين مرةً ونفارقهُ أُخرى وهو ينساب في تلك المروج كسلسلة من اللجين الى ان تعترضهُ السدود التي اقامها الصنّاع لرفع مائهِ الى معاملهم فيرغي ويزبد كالبحار . ولم نلبث طويلاً حتى دخلنا ثغرة في السور المحيط بباريس احاطة السوار بالمعصم وسرنا الى محطة طريق ليون احدى المحطات الست التي فيها وكان ذلك بعيد العصر فرفعَ الخدمة امتعتنا الى المركبات بعد ان رآها رجال الجمرك على ما تقدم وذلك في خمس دقائق من الزمان وسرتُ الى النزل الذي اخترتهُ تجاه حديقة التويلريه

ولم اطلب الراحة من وعثاء السفر لانني لم اتعب من جنيفا الى باريس قدر ما اتعب من القاهرة الى حلوان فطفتُ في ساحة الكنكرد والأولى ان تسمى بساحة المسلة لانها اعظم شيء فيها وقد احلها الفرنسويون على الرحب والسعة فنصبوها في قلب مدينتهم بل في سويدائها وحاطوها بتماثيل مدنهم حراساً عليها وبما لا يحصى من المصابيح لكي لا تستوحش في ارض غربتها . وقد تحسرت على نقلها من امام هيكل لقصر لما رأيت اختها هناك تندب الوحدة وتشكو الفراق ولكنني لما رأيتها هنا مكرمة المثوى مرفوعة المنزلة واختها في لقصر محاطة باكوام الردم والاقذار زالت الحسرة وقلت ان كل مكان ينبت العزّ طيّب ووطنك حيث تكرم لا حيث تهان وما احسن ما قيل

قوّضْ خيامكَ من ارضٍ تهان بها ... وجانب الذلّ ان الذلّ يجتنبُ
وارحل اذا كان في الاوطان منقصةٌ ... فالمندل الرطب في اوطانهِ حطبُ

والمسلة كاختها التي لم تزل في لقصر حجر واحد من المرمر الاحمر من صخور اصوان طولهُ ٧٦ قدماً انكليزيّة وعليها كتابات بالقلم المصري القديم تشير الى فتوحات الملك رعمسيس الثاني . وقد بقيت في وطنها من ايام ذلك الملك العظيم وشاهدت دخول بلاد مصر في حوزة الفرس واليونان والرومان والعرب وآل عثمان الى ان اهداها العزيز محمّد علي باشا الى الملك لويس فيليب سنة ١٨٣٠ فنقلت الى باريس ونصبت في هذه الساحة سنة ١٨٣٦ وبلغت نفقات نقلها ونصبها مليونين من الفرنكات . وقد وضع لها الفرنسويون قاعدةً من المرمر الازرق علوها ١٣ قدماً وهي حجر واحد ايضاً ونصبوا حولها تماثيل مدنهم ليون ومرسيليا وبوردو ونانتس وروان وبرست وليل وستراسبرج . اما ستراسبرج فهي الآن لالمانيا ولذلك تجد تمثالها محاطاً باكاليل الحداد

ولهذه الساحة تاريخ مشوم فقد اجتمع فيها سنة ١٧٧٠ خلق كثير من اهل باريس لمشاهدة الاحتفال بزواج ابن ملكهم وحدث ما جفلهم فجفلوا وداس بعضهم بعضاً فقتل منهم الف ومئتا نفس وجرح وترضض الفان . وسنة ١٧٩٣ صارت مجزرًا لقتل الابرياء فقطع فيها رأس الملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانت حيث نصبت المسلة بعدئذٍ ومن تلك السنة الى اواسط سنة ١٧٩٥ بلغ عدد من قطعت رؤوسهم هناك الفي نفس

وقد وقفت امام المسلة طويلاً افكر في تاريخها وتاريخ الساحة التي نصبت فيها والاطوار التي مرّ عليها نوع الانسان والمهج التي ذابت ارضاء لاهل الجاه او حماقة من الطامعين فيه وأقابل ما مضى بما هو جارٍ الآن فارى المعنى واحدًا تقريباً ولو تغيرت المظاهر . فالمليونان اللذان أُنفقا على نصب هذه المسلة قطرات دم من جبين العمال الفقراء مثل قطرات الدم التي قطرت من جباه المصريين حينما قطعوا هذه المسلة ونصبوها اكراماً لملكهم . والفرق بين الحالين ان ما تفعلهُ الرعيَّة الآن تفعلهُ برضاها واما قبلاً فكانت تفعلهُ مسخرةً

وهذه الساحة بما فيها من الينابيع والتماثيل وبما على جوانبها من الاشجار الباسقة اجلُّ ما رأتهُ عيني حتى الآن وفيها بركتان كبيرتان قطر كلٍّ منها ٥٣ قدماً وفي كلٍّ منها حوضان الواحد فوق الآخر وهما محاطان بتماثيل تمثل البحار والانهار وحاصلات البر والبحر وفي البرك تماثيل عذارى حاملات دلافين يتبع الماء من افواهها ويرتفع الى الحياض العليا وينصبُّ الماء من افواه اسود ومن ميازيب في الحياض العليا وتسير حبال الماء كالسهام صعودًا ونزولاً والارض كلها مفروشة بالاسفلت فيمشي الناس فيها زرافات لا يخشون عثيرًا ولا غبارًا . ومضيت في الصباح الى برج ايفل وصعدت الى قمته ورأيت المدينة كلها وما يحيط بها من المدن والدساكر الى مسافة ثلاثين او اربعين ميلاً وركبت مركبة بعيد الظهر طفت بها في كل الشوارع الكبيرة ورأيت جميع المباني الشهيرة من ظاهرها فقط. وهاءنذا اصف للقارىء الصورة الجملة التي رسخت في ذهني من ذلك قبل ان آتيهُ بوصف ما اشاهدهُ فيها . وحبذا لو كان قلمي نورًا والقرطاس صفيحة من الزجاج المعد لتصوير الشمس فارسم عليه صورة حقيقيَّة خالية من كل اطناب ومبالغة عارية عن تزاويق الخيال

اما برج ايفل فآية من آيات الصناعة بل اعظم الاعمال الهندسيَّة وقد طالما سمعت

عنهُ وقرأت المقالات الطويلة في وصفهِ ورأيت صورتهُ على انحاء شتى لكن ليس الخبر كالعيان ولم يخطر ببالي قط ان اراهُ بالعظمة التي هو فيها . وقلما دخلت بناء من المباني الكبيرة الاَّ رأيتهُ اصغر مما قدرتهُ في ذهني الاَّ هذا البرج فاني رأيت قواعدهُ اعظم مما كنت اظن بما لا يقدَّر وقد زادت دهشتي لما صعدت الطبقة الثانية ورأيت عظم اتساعها وكبر القناطر المحيطة بها بالنسبة الى ما تظهر بهِ من الارض وكنت اشعر في صعودي بالرافعة كأَن البرج يغوص في اعماق الارض والمدينة ترتفع الى اعالي السماء ومعلوم ان الهرم الاكبر من اهرام الجيزة ارتفاعهُ ٤٤٩ قدماً واما هذا البرج فارتفاعهُ ٩٨٤ قدماً . وما يرى فيهِ عن بعد من الدقة والنحافة لا يبقى لهُ اثر والانسان قائم بازاء قائمة من قوائمهِ الاربع او واقف على سطح من سطوحهِ وهو يرى الغرف الوسيعة بما فيها من الكراسي والموائد والمصابيح حتى اذا بلغ قمة البرج التي يباح لهُ الارتقاء اليها وشاهد مدينة باريس تحتهُ كالخريطة المرسومة والبلاد حولها الى مسافة اربعين ميلاً او اكثر من كل ناحية شعر بعزةٍ وانشراحٍ كأَنهُ تسلط على تلك البلاد الاَّ ان هذا الشعور لا يدوم لان الرياح تعصف شديداً مرةً بعد أُخرى فتعود به من عالم الخيال الى عالم الحقيقة ويرى انهُ لا بد لهُ من ان يتمسك بقبعتهِ وردائهِ والاَّ عبثت بهما الرياح

اما الخمائل التي حول البرج وبين القصور المحيطة بهِ فمن ابدع ما نظمهُ البستاني . ولاهل باريس فنون بديعة في غرس خمائلهم فيحوطونها بنباتات متنوعة الازهار حتى ترى عن بعد كالبسط الفارسيَّة المنقوشة الحواشي

وشوارع باريس اكثرها واسع مفروش بالاسفلت او بالخشب فتسير عليها المركبات كأَنها على بساط وثير وبعضها لم يزل مرصوفاً بحجارة صغيرة صقيلة بريت جوانبها من الاحتكاك فتسمع لعجل المركبات وحوافر خيلها طقطقة تصمُّ الآذان ولا سيما مركبات الاميبوس الكبيرة . وكل الشوارع نظيف يكنس بل يغسل غسلاً يوميًّا . ولا ادري أتعوَّد الناس النظافة خاصتهم وعامتهم حتى لا يطرحوا في الشوارع شيئاً ولا قطعة ورق ام للشوارع خدَّام يطوفون دائماً ويجمعون كل ما يسقط فيها والغالب الاول لان الساحات العموميَّة والميادين الفسيحة نظيفة ايضاً نظافة الشوارع

والماء غزير جدًّا في باريس وهي كريمة بهِ فتراهُ مطلقاً على جوانب الشوارع صافياً كالبلور ثم يجري الى مصارفها الوسيعة التي تسع اضعافهُ فينقل مع الاقذار الى خارج المدينة . ومنظر المباني من الجهة التي دخلتُ منها المدينة حقير لا يروق في عين الناظر

ولكني لم اوغل فيها كثيرًا حتى تجلَّت لي عظمتها وفخامتها فان القصور والكنائس والمنازل تأخذ بالابصار بارتفاعها الشاهق وكثرة اعمدتها ونقوشها وتماثيلها فيراها الناظر جامعة بين الجلال والجمال ولكن جمالها مشوب ببعض الكدورة فان اللون الرمادي او الاسود المتغلب عليها ولا سيما على القديم منها يجعل جمالها كجمال رجل كهل عرك الدهر لا كجمال غادة حسناء . وكم وددتُ لو ان تماثيلها وعُمُدها ونقوشها كانت كلها من الرخام الابيض الصقيل فلا تؤثر فيها العناصر ولا يعلوها اغبرار الزمان وهيهات ذلك ايضًا في مدائن اوربا فان قصور البندقيَّة من الرخام الابيض ولكن الزمان البسها ثوب الحداد . والمنازل كبيرة جدًّا تدل على ان كل منزل منها يسكنهُ كثير من العيال الَّا منازل الاغنياء لكن الهواء لا يفسد بالازدحام لكثرة الحدائق والساحات العموميَّة واتساعها الفائق على ما سيجيء. وترى الصغار والمراضع والاطفال نافرين في تلك الحدائق مثات والوفًا كاسراب القطا يلعبون فيروضون ابدانهم ويطهرون دماءهم باستنشاق نقي الهواء والهواء النقي يهبُّ فيها بين الشوارع والاحياء فيطهرها كما تطهر المياه ارضها

والمخازن والحوانيت كثيرة جدًّا لكن لا يظهر ان حركة البيع والشراء كثيرة ككثرتها ولعلَّ ذلك خاصٌّ بهذا الفصل. ولم ارَ فيها مخازن امامها رواق جميل كالرواق الذي في ميلان او في البندقيَّة . والرواق الاكبر في باريس ولعلهُ الوحيد هو رواق شارع ريفولي ولكنهُ ليس اعظم من رواق وجه البركة في القاهرة ولو كان اطول منهُ . وملابس الرجال والنساء والاولاد في غاية اللباقة وما لم يكن فاخرًا منها فهو نظيف لا تأنف من الجلوس مع لابسهِ في مركبة واحدة

هذا مجمل الصورة التي رسخت في ذهني في اليوم الاول من دخولي هذه المدينة الزاهرة

## ٩

### معابد باريس

قصرتُ الكلام في رسالتي الماضية على ما شاهدتهُ في ظاهر باريس قبل ان دخلتُ مبانيها الفخيمة ورأيت ما فيها من التحف والنفائس . وهاءنذا اصف ما رأيتهُ مرأى العين على ما سمحتْ لي بهِ الفرصة الوجيزة . وقد قدَّمت المعابد لانها من اقدم مباني المدينة وارفعها منارًا ولان للعبادات المقام الاول في تاريخ الانسان وهي الحاكم المطلق على الاميال والعواطف وقلما حاول احد زعزعة اركانها ونزع صولتها قبل اهل هذه المدينة. ولهم في ذلك اليد الطولى حتى لقد يظن من يطالع تاريخ الثورة الفرنسويَّة انهُ لم

يبقَ في باريس معبد لكنهُ اذا جال في انحائها رأى الامر على ضد ما ظنَّ بل رأى قبر فولتير في كنيسة القديسة التي وُضعَتْ باريس تحت حمايتها من قديم الزمان فاعجب لهذا التضاد الذي قلما يكون في غيرها . واول كنيسة دخلتُها رأيت فيها جمهورًا من المصلين رجالاً ونساء شيوخًا وكهولاً واحداثًا ولم يكن اليوم احدًا ولا عيدًا فقلت للدليل الذي كان معي اراكم متدينين يا اهل باريس فانغض رأسهُ وقال لا تغرك الظواهر . ثم جعل يسرد لي جملاً كثيرة من اقوال يختر في كتابهِ الحياة والحركة ومن اقوال غيرهِ من المعطلة واللاأدريَّة في نفي النفس والخلود وبطل الاديان . فوجدتُ انهُ على ما بهِ من الفقر وسوء الحال قد طالع كثيرًا من الكتب التي لا اعرف اسماءها او سمع خطبًا في هذه المواضيع من خطباء بارعين فيها فلم استغرب ذلك منهُ لان البلاد التي تلد مثل رجال الثورة الفرنسويَّة ورجال الكومون لا يُستَغرَب ان يكون فيها كثيرون من مثل هذا الرجل

واشهر معابد باريس كنيسة نوتردام ولها الشأن الاكبر في تاريخ الثورة السياسية والعقليَّة وفيها اكثر الذخائر والتحف الدينيَّة . وهي من حيث البناء والهندسة لا ترضي الناظر اليها ولاسيما لانها في بقعة منخفضة حتى كدتُ اعدل عن الدخول اليها لولا لجاجة الدليل فلما دخلتها رأيت فيها من إحكام الهندسة وفخامة البناء ونفيس التحف ما يليق بها . وقد وضع اساسها سنة ١١٦٣ ولم يتمَّ بناؤها حتى القرن الثالث عشر وهي ليست اكبر كنائس باريس فان كنيسة سنت سلبس طولها ٤٦٢ قدمًا وعرضها ١٨٢ قدمًا وطول كنيسة نوتردام ٤١٧ قدمًا فقط وعرضها ١٥٦ قدمًا وبناؤها بالشكل القوطي وفي واجهتها كثير من التماثيل القديمة التي صبرت على انياب الدهر ونيران الثورات الفرنسويَّة ستمئة عام . وعلى طرفي الواجهة برجان عظيمان ارتفاع كلٍّ منهما ٢٢٣ قدمًا وفي الجنوبي منهما جرس من اكبر الاجراس التي في المسكونة ثقلهُ ١٦ طنًّا اي نحو ٣٦٠ قنطارًا مصريًّا . والبرجان مقطوعان من اعلاهما ليس فوقهما قبب مستدقة كابراج سائر الكنائس ولذلك لا يروق منظرهما للرائي . ومن غرائب هذه الكنيسة ان فيها كوّتين مستديرتين قطر كلٍّ منهما ٤٢ قدمًا . وفي خزائنها من الذخائر والجواهر ما يعجز عن وصفهِ القلم وتقدَّر قيمتهُ بملايين كثيرة من الفرنكات فهناك حلل كهنوتيَّة مذهبة ومرصعة بالالماس والياقوت وتيجان وصلبان وكؤوس واشعة افرغ الصنَّاع جهدهم في صوغها وترصيعها بكل حجر كريم ومنها شعاع كبير كالشمس لا ترى فيهِ الاَّ حجارة

الالماس وهناك الطيلسان الذي لبسهُ نبوليون الاول والطيلسان الذي لبستهُ زوجتهُ حينما توَّج نفسهُ امبراطورًا وتوجها معهُ واثواب بعض الاساقفة الذين قتلوا وهم يردعون الثائرين وهي ملطخة بدمائهم

وغنيٌّ عن البيان ان كنيسة باريس الاولى يجب ان تحوي ما لا يحويهِ غيرها من الصور والتماثيل ولاسيما بعد ان مرَّ عليها ستمئة عام لكن الناظر اليها لا يرى فيها قدر ما ينتظر لان جانبًا كبيرًا ممَّا كان فيها تلف في الثورة الفرنسويَّة . فقد اقرَّ رجال تلك الثورة سنة ١٧٩٣ على خرابها ثم عدلوا عن ذلك واكتفوا بإتلاف ما فيها من التماثيل وجعلوها معبدًا لمذهبهم الجديد الذي استنبطوهُ وسموهُ معبد العقل ووضعوا فيها تمثال الحريَّة بدل تمثال مريم العذراء وجعلوا يغنُّون فيها اغاني الحرس الوطني الحماسية بدل الاغاني الدينيَّة واقاموا فيها نصبًا وضعوا عليهِ مشكاة متقدة سمُّوها مشكاة الحق وانشأوا فوقهُ هيكلاً صغيرًا يوناني الشكل سموهُ هيكل الفلسفة ونصبوا فيهِ تمثال ڤولتير وروسو وغيرهما من كبار الكتَّاب ومثَّلوا العقل بتمثال امرأة جميلة ونصبوهُ على عرش في هذا الهيكل وعبدوهُ فيهِ . وكان العذارى يلبسنَ ثيابًا بيضاء ويحملنَ مصابيح بايديهنَّ ويطفن حول هذا الهيكل . ويظهر لي ممَّا يرى في باريس من تماثيل النساء العاريات وصورهنَّ في دور التحف والقصور والمتنزهات العموميَّة والخصوصيَّة والمخازن والحوانيت انهُ لو أُبيح الآن لاهالي باريس ان يعبدوا ما يشاؤون لاقام اكثرهم تمثال امرأة عارية وعبدوهُ . ومن الغريب ان النساء والعذارى ينظرنَ الى هذه التماثيل ولا يبالينَ ولا تعلوهنَّ حمرة الخجل . وقد جاهر اشهر كتابهم بان ذلك واجب . ورأيت لاحدى الكاتبات الاميركيات كلامًا مسهبًا في هذا الموضوع قالت فيهِ " انهُ اذا اعتاد فتياتنا وفتياتنا ان ينظروا الى جسم المرأة العاري كما ينظرون الى ايديهم وملابسهم ولا يحسبوا في ذلك شيئًا يستحيا من النظر اليهِ زال الميل الى ارتكاب المحرَّمات لان احب شيء الى الانسان ما منع "

وأُقفلت كنيسة نوتردام في اواسط سنة ١٧٩٤ وبقيت مقفلة الى سنة ١٨٠٢ وحينئذٍ فتحها نبوليون بونابرت وأُعيدت كنيسة مسيحية كما كانت . ولما قويت شوكة الكومون سنة ١٨٧١ استولوا عليها وجعلوها مخزنًا حربيًّا ثم لما غُلبوا على امرهم اضرموا فيها النار ولكن جنود الحكومة ادركتها حالاً واطفأتها فنجت من الحريق

ومن الكنائس المشهورة في باريس كنيسة مريم المجدلية ( مدلين ) وقد استوقفني

لانها شبيهة ببيكل بعلبكّ الصغير وهي من المباني الحديثة وضع اساسها الملك لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٤ ولم يشرع البناؤون في بنائها حتى سنة ١٧٧٧ فلما قامت الثورة لم يحاول الثائرون تخريبها لانها لم تكن قد تمّت . وعدل نبوليون بونابرت عن جعلها كنيسة واراد تسميتها بهيكل المجد ولكن الملك لويس الثامن عشر ردّها كنيسة وتمّ بناؤها سنة ١٨٤٢ وقد بلغت نفقات البناء ثلاثة عشر مليونًا من الفرنكات اي خمس مئة الف جنيه مصري وهي بالشكل الروماني محاطة برواق من الاعمدة الفخيمة بالشكل الكورنثي . وطولها مع الرواق المحيط بها ٣٥٤ قدمًا وعرضها ١٤١ قدمًا وارتفاعها مئة قدم وهي مبنية على دكة ارتفاعها ٢٣ قدمًا . وليس في جدرانها كوًى فتنار من سقفها بكوًى كبيرة فيهِ . واعمدتها لا تقاس باعمدة بعلبك ولاسيما لان العمود من اعمدة بعلبك من حجرين او ثلاثة واما هذه الاعمدة فمن حجارة صغيرة مبنية بعضها مع بعض فتستصغرها العين مهما كانت كبيرة . وظاهر الكنيسة من حجر باريس الرملي الصلب وداخلها من الرخام والمرمر البديع الالوان والاشكال ولها باب من البرنز ارتفاعهُ ٣٤ قدمًا وعرضهُ ١٦ قدمًا

ومن الكنائس الجميلة كنيسة سان روش وهي على مقربة من قصر اللوفر بنيت بين سنة ١٦٥٣ و١٧٤٠ ورواقها الاوسط مرتفع كثيرًا عن الرواقين اللذين على جانبيهِ وفيهِ كوًى كبيرة يدخل منها النور غزيرًا فيكون بهِ منظر الكنيسة بهيجًا جدًّا ولاسيما لان اسفل جدراتها من المرمر الملوّن وفيها تقام اكثر الحفلات الدينية في الاعياد الكبيرة. واماما نثبت الواقعة الكبيرة بين بونابرت وجنود الملكيين سنة ١٧٩٥ فتغلّب عليهم ومهّد لنفسهِ سبيل الملك والمجد الذي انتهى بغصة الغربة والقهر

ولا يظهر ان كنائس باريس كثيرة بالنسبة اليها فانهُ ليس فيها اكثر من خمسين او ستين كنيسة كبيرة مع ان فيها نحو مليونين ونصف مليون من السكان ولا تذكر كنيسة من كنائسها في جنب كنيسة ميلان او كنيسة البندقية مع ما للفرنسويين من الملك الواسع والشرف الباذخ والمجد الاثيل. واذا صحّ ان نستنتج شيئًا من ذلك استنتجنا ان الدين غير متسلط على النفوس في هذه البلاد تسلطهُ عليها في ايطاليا. والظاهر ان اهالي باريس افرغوا جعبة تحمسهم الديني في مذبحة مار برثلماوس ولذلك لا يذكرون تلك الحادثة الشنعاء الآن الاّ بالندامة والاسف